

أمل خلب

كانت عاطفة الحب في « بيتهوفن » جياشه ، يفيضها على كل مخلص . وكان مشغوقاً بالجمال ، عظيم التعلق به ، والانبجذاب إليه ، حتى قال فيه صديقه فيجنر : إن قلبه لم يخل في « فينا » - وعلى الأقل طوال إقامتي بها - من الحب . وكثيراً ما جمحت به تلك العاطفة فبلغ في حبه حد الوله والهيام »

وكان « بيتهوفن » رغم كثرة من أحبهن ، وأحبهنه - وكلهن من الطبقة الراقية - العاشق البائس والحب المنكود ، فلم يوفق في حبه طوال حياته ، ولم يجد منهن من رضيت به بعلا ، تحتمل معه أعباء الحياة في إخلاص وتواد .

ويتجلى عشقه للجمال في تلك الرسالة التي بعث بها إلى صديقه « إيجناز فون جلايشنشتاين Ignaz Von Gleichenstein » في مدينة « فرايبورج » يبعث عن زوجة صالحة قال :

« وهل عندك في « فرايبورج » امرأة جميلة يمكن أن تنسجم وطبعي . . . ولا بد من أن تكون جميلة لأنى لا أستطيع أن أحب شيئاً غير جميل ، وإلا كان الأولى أن أحب نفسي . »

ومن آثاره التي يحتفظ بها التاريخ ، رسالة غرامية مسهبة كتبها إلى « الحبيبة الخالدة » ، وهى رسالة مطولة ، كان ختامها ما ترجمته :

« يا حياتى - يا كل شىء لى - وداعاً - ولتقيمى على حى .
لا تنكرى قلب حبيبك الذى هو أكثر القلوب إخلاصاً . أنا لك إلى
الأبد ، وأنت لى إلى الأبد ، وكلانا لأخيه أبداً »

وهذه الرسالة وإن لم يذكر بها اسم المحبوبة ولا تاريخ تحبيرها
فإن الرأى يكاد يجمع على أن الحبيبة المعنية كانت الكونتس « تريزا
برونسفيك Therese Brinswik » شقيقة صديقة النبيل « فرانس
برونسفيك » ، والمرجح أن يكون ذلك بين عامى ١٧٩٥ و ١٨٠٠ .
وكان « بيتهوفن » يكبر حبيبته هذه بخمسة أعوام . ولئن بادلته
حبه لقد رفضت الاقتران به . وقال بعض المؤرخين ، بل إن هذه
الرسالة موجهة إلى « جوليت جويكياردى » التى أحبها فى ذلك الحين ،
والتى نجمل قصتها فيما يلى :

منذ عام ١٧٩٩ ، وبيتهوفن يقوم بإعطاء دروس البيانو لغادة
حسنة ، فى نضارة العمر وريعان الصبا ، وهى النبيلة « جوليت
جويكياردى » . كانت هيفاء القد ، معتدلة القوام ، مكتملة النضوج ،
ذات شعر كستنائى جعد ، وعينين زرقاوين جميلتين ، يشف كل شىء
فيها عن أرستقراطية تليدة ، ومجد قديم . خفيفة الروح ، وديعة الخلق ،
عذبة الحديث ، رقيقة الحاشية .

كان طبيعياً أن ينجذب « بيتهوفن » إلى ذلك الجمال الرائع ،
وأن يستولى عليه هذا الحسن النادر فيغزو قلبه ، ويملاً حبها جوارحه بعد
أن فشل فى حبه السابق .

حب « بيتهوفن » تميزته الحسنة ، وبادلته هي هذا الحب
أيضا . وامتدت معرفتهما ثلاثة أعوام كاملة .

نبتت عند « بيتهوفن » فكرة الزواج من حبيبته (جوليت) ،
ولكن هل يقوى على مفاتحة أهلها في هذا الأمر ، وهو الفنان المعدم
الذى أذل نفسه مرض الصمم ، ذلك المرض الذى يتزايد خطره يوماً
بعد يوم ، وهى المترية النبيلة ، والزهرة اليانعة ، التى تتطلع اليها عيون
أشراف ونبلاء « فينا » ؟

لم يقو « بيتهوفن » على خطبتها ، ولم يجروا على مفاتحة أهلها فى
تلك الرغبة التى كان يؤجلها فى نفسه من حين إلى حين

عدت « جوليت » ذلك منه تواكلا وإغفالا لأمرها ، ولم يكن لها
بد من أن تخضع الى رغبة والديها الملمحة فى الاقتران بالنبيل « جالبرج »
اعتبر « بيتهوفن » ذلك خيانة من « جوليت » ونكثاً لعهدهما ،
وغدراً منها لإخلاصهما . فتولاه اليأس وشمله الكمد والحزن واعتزم أن
يرحل من « فينا » فقصده إلى النبيلة « إرديدى » التى لم يكنتماسره ،
تعرفت كيف تؤاسيه ، وتخفف آلامه ، وتسرى عنه فى هذه الكارثة القلبية
كانت تلك السيدة تقيم فى ضيعتها فى الريف قريبا من « فينا »
فمكث عندها بضعة أيام . ثم توارى فجأة دون أن يودعها أو يستأذنها .
وإذ كانت هذه النبيلة تعرف من « بيتهوفن » شذوذ طبيعه ، ونبو
نصرفاته ، فإنها لم تجد فى فعلته هذه شيئا غريبا . وأيقنت أنه عاد إلى
مدينة « فينا » . ولكن سرعان ما تبين أن هذا الزعم كان خاطئا ،

فقد استحق الموسيقى في ناحية ثانية من حديقة القصر وانزوى فيه صائماً إلى أن يموت جوعاً . وكادت هذه الفكرة تم فتكون نهاية قاسية لمصير ذلك الموسيقار الخالد ، لولا أن كشف عن مخبئه مصدفة معلم الموسيقى في بيت القبيلة ، بعد مضي ثلاثة أيام من استحقاق « بيتهوفن » حمل « بيتهوفن » إلى القصر أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . وظل حب « جوليت » في قلبه حياً . لم يستطع منه فكاً كما . ولقد أودع أحاسيس قلبه مقطوعته الخالدة « السوناتا دو ديز مينيير » التي ضمنها قصة حبه لمحبيبته « جوليت » . هي قطعة رائعة في تعبيرها تنطق عن قوة اليأس في الحب وانطفاء سراجة وخيبة الأمل فيه ، والوداع الذي لا لقاء بعده . تعبير موسيقى فصيح لا يمكن أن يكون أبلغ منه وإذا بالموسيقى تنتقل في نغمات كاشفة عن بسمة الزمان في لحظات قبيلة من السعادة تمنع في ظلمة المستقبل الهيم ، يعقبها ألم الحنين وثورة الحنق وضربات القدر المؤلمة . كل هذه المعاني وغيرها من مختلف الأحاسيس التي كانت تجيس وقتئذ في صدره والتي لا تقوى الكلمات على التعبير عنها صورها « بيتهوفن » أدق تصوير في تلك المقطوعة الخالدة التي سميت فيهما بعد « سوناتا ضوء القمر »

ويعمل بعض المؤرخين إلى أن هذه السوناتا وإن ترجمت إلى حد كبير عن قصة « بيتهوفن » وحبيبته فإنها لا صلة لها بتلك القصة حضر « كارل » شقيق « بيتهوفن » إلى فيينا والتحق بأحدى

وظائف البنك الأهلي

وشاء « كارل » أن يحمل عن أخيه - وقد أصبح ذائع الشهرة
بعيد الصيت - عبء المراسلات والاتفاقات المادية ، إلا أنه بالغ في الأمر
حتى أصبح يعتقد أنه شريك شقيقه وولى أمره . فضلا عن أنه أضفى
على ذلك العمل ثوبا تجاريا بحتا أساء الى سمعة أخيه
ولعل الرسالة التالية تصور بعض ما كان يقوم به « كارل » في
هذا الصدد ، فقد كتب إلى أحد الناشرين يقول :
- لقد تفضتتم بإرسال خطاب الينا (!) تعربون فيه عن الرغبة
في شراء حقوق بعض مؤلفات شقيقى وإنا لشكر لكم خالص الشكر
ونخبركم أن ليس لدينا الآن غير قطعة « سنغوى » واحدة ، وقطعة من
« الكونسرت » الكبير للبيانو . والأولى ثمنها ثلثمائة جولدن (حوالى
٢٥ جنيتها) والثانية ثمنها كذلك أيضا فإن رغبتم فى الحصول على قطع من
نوع « السوناتا » فإنى (!) لا أستطيع أن أعطيها لكم بأقل من
تسعمائة جولدن (حوالى ٧٥ جنيتها) . وهذه لا تستطيعون الحصول
عليها دفعة واحدة بل سأرسلها لكم تباعا ، قطعة كل خمسة أو ستة أسابيع
لأن شقيقى أصبح لا يشغل نفسه بمثل هذه الطلبات التافهة . . . وعلى
كل حال أرجو موافاتى برأيك لأنى فى صدد بيع هذه المقطوعات لناشر
آخر . ولدينا قطعتان أخريان من نوع « الأداجيو » لآلة الكمان بمصاحبة
جميع آلات الفرقة ، وثمانها ١٣٥ جولدن (حوالى ١١ جنيتها) . ثم
قطعتان صغيرتان « سهلتان » من نوع « السوناتا » وثمانها ٢٨٠ جولدن
(حوالى ٢٤ جنيتها) ونحن فى خدمتكم . . . »

وهكذا كان تصرف « كارل » في عرض النتاج الفني لأخيه عرضاً تجارياً بحتاً أساء إلى سمعته وصورة لدى الناشرين البعيدين عنه صورة خاطئة بعيدة عن الحقيقة .

ثم غالى « كارل » في هذه الناحية فتصور نفسه صاحب الأمر والنهى فى بيع نتاج أخيه ، حتى لقد حدث أن اتفق « بيتهوفن » فعلاً مع أحد الناشرين فى « زيورخ » على أن يرسل له بضعة قطع من نوع « السوناتا » ، ولكن « كارل » تشبث بعدم إرسالها إليه وبيعها إلى ناشر آخر فى مدينة « ليزج »

وبلغ اختلاف الشقيقين إلى درجة المشاجرة . حتى لقد تطاول « كارل » على شقيقه فأمسك بخناقه وتدافعا وتضاربا وكانت نتيجة هذا العراك العنيف أن تولى « بيتهوفن » ثانية تصريف جميع أمره . فى أوائل عام ١٨٠٢ ثقل المرض على « بيتهوفن » فلما تماثل ، أشار عليه طبيبه الأستاذ « شميت » بالنزوح إلى ريف « المدينة المقدسة » وهى إحدى ضواحي « فينا » ليستجم فيها استجماما تاما يعيد إليه الصحة والعافية ، وقد يكون للهدوء الذى يشمل تلك الجهات أثر حسن فى حاسة سمعه . أقام « بيتهوفن » هناك فى بيت قروى ، كان يطل على الحقول الفسيحة ، ونهر « الدونا » الجميل ، كما كانت بالقرب منه حمامات معدنية ، على مسيرة بضع دقائق من مسكنه

أقام فى هذا المكان الجميل الهادى ، حتى الحريف ، ولئن عاش « بيتهوفن » هذه الفترة من الزمن فى راحة شاملة لقد كانت تمر به فى

وحدثه لحظات مظلمة كانت تسوقه إلى اليأس أحيانا . وفي إحدى تلك اللحظات ، وقد تصور قرب نهايته ، كتب وصيته وهي تجلى عما كان ينطوى عليه قلبه الكليم من لواعج وآلام ، وتكشف عن مكنون لامة المكبوتة . وهذه الوصية موجهة إلى شقيقه ، وقد بدأها بقوله :
« أيتها المخلوقات البشرية ! إنك تظلميني فيما تعتدنيه في من عدوان ، وجود ، ونظرة مظلمة للعالم ، ذلك بأنك تجهلين الأسباب الخفية التي صورتني لك في هذا المظهر . إن قلبي وروحي قد درجا منذ الطفولة على رقيق المشاعر ، وحب الخير ، والاستعداد للأعمال الكبيرة ولكن ماذا لقيت ؟ جابهتني منذ ستة أعوام حالة سيئة ! أطباء كانت جهالتهم سببا في مضاعفة المرض عاما بعد عام ، وفي غشهم لي ما جعل المصيبة رازحة لا تريم . وللناس أن يتصوروا حالي - أنا الرجل المملوء نشاطا بطبعه ، المحب للمجتمعات والمجالس بفطرتة - - وقد حيل بيني وبينها وانتزعت منها إلى العزلة ، في سن مبكرة أنيس الوحدة وجليس الوحشة »
لقد حاولت أحيانا أن أثور على هذه الحال ، وأن أخرج للناس وأتصل بالمجتمعات . ويلى ! لقد كنت أعود وقد فدحت في قلبي مضاضة الألم ، وتزايدت فيه حرارة الحسرة ، ما أقسى فقد حاسة السمع . إنني لا أقوى على أن أطلب إلى محدثي أن يرفع صوته لأني أصم . كيف أعترف للناس بفقد حاسة يجب أن تكون عندي أتم وأكمل منها عند بقية الناس ، حاسة كانت عندي في صورة كاملة يغبطنى عليها جميع زملائي وأقراني . ويلى ! ما أعجزني عن تحمل هذه الحال

فاغفروا لى أيتها الناس عزائى . وعضوا عن برغامى على الابتعاد عنكم
وكل منأى أن أكون بينكم . يضاعف آلامى حرمانى من الترويح عن
نفسى بالاشتراك فى مجالس السمر التى ينتسرح لها صدرى . لقد كتب
على أن أعيش كالمنفى . فاذا غشيت مجلساً انتابنى فزع عظيم من أن
بدرك أهله حالى وأن يقفوا على مصيبتى . لقد فكرت كثيراً فى أن أضع
نهاية لحياتى ، ولكن مخافة الله وحبى لفقى هم اللذان كانا يبعدان عنى
هذا الخاطر . إننى لا أريد الموت ولا أرغب فى ترك هذا العالم قبل أن
أبلغ رسالتى التى أعتقد أنى بعثت من أجلها ، وأن أحقق لفقى آمالاً كباراً
تجيش فى صدرى . هذه النجوى وحدها هى التى ساعدتنى على أن
أتحمل ذل هذه الحياة التعسة . الصبر ، كلمة أضعها دائماً نصب عينى . هى
قائدى ، وقبلى . لشدما كان ترددى بين الأمل واليأس ، ولكنى
أشعر الآن أن حبل الحياة قد انقطع .

ثم جاء فى هذه الوصية أن يرثه شقيقاه فى ترك من متاع . ثم هو بعد
ذلك يشكر لأصدقائه وبخاصة أسرة «اشنوفسكى» والأستاذ «شميت» .
ويلى ذلك حاشية ضمها إلى الوصية بعد بضع أيام يودع فيها
«المدينة المقدسة» التى يقيم بها ، ويشكو من أن مقامه فيها لم يحقق
أمله فى شفائه من مرضه ، بل لقد انقطع جميع رجائه فى الشفاء .
وقد ختم تلك الوصية بقوله :

« إيه ، أيتها السعادة ! كنت أتمنك ولو يوماً واحداً ، ولكنك
أصبحت غريبة عنى ، بعيدة عن حنايات قلبى . رياه ! هل لى أن

أحس أنني آدمي ، وأنني إنسان ، كلا ، ذلك ما ننز يكون . إنه قضاء قاس «
ولم يدرك « بيتهوفن » يوم كتب هذه الوصية التي توهم فيها اقتراب
أجله أن العمر سيمتد به بعد كتابتها نيفاً وربع قرن .

وعجيب أن يكون النتاج الذي ابتدعه « بيتهوفن » في تلك
الأشهر النكدة التي سطر فيها اليأس والحزن وصيته نتاجاً صافياً لا يلمح
المراء فيه أثراً للانقباض واليأس ، بل لعن هذا النتاج في مجموعه أكثر
نتاج هذا الموسيقار الخالد بهجة وسروراً ، وانشراحاً ومرحاً ، بل لقد
أبدع « بيتهوفن » في صيف ذلك العام قطعة من أخلد مقطوعاته ، هي
« السنفوني الثانية »

وبرغم اضطراب أفكاره تلك الفترة من الزمن ، وتبلبل باله
إذ ذاك فقد وهب العالم من رائع نتاجه ، وسمو فنه ما لا يزال في قلب
كل محب الموسيقى ، مغرم بالفن .

كانت عبقرية « بيتهوفن » لا تتقيد في تأليفها بقواعد مرسومة ،
أو تراكيب تقليدية موروثة ، إنما كانت حرة في تأليفها ، طليقة في
ابتكاراتها تتخطى كل هذه القيود والتقاليد الفنية ما دامت تجد في
هذا التخطي تحريراً لهذا النتاج من أسر هذه الأغلال

كان ذلك فوق طاقة معاصريه . فلم يدركوا غايته ورموه بالخروج
على التراكيب والقواعد المتواضع عليها ، وعدوا نتاجه خليطاً مفككاً .
ومن أجل ذلك كان النقد الذي يوجه لنتاج « بيتهوفن » من معاصريه
الفنانين والنقاد مرّاً قاسياً ، حتى لقد وصفوا نتاجه الآلي للفرق

الكبيرة ، ومن بينها « السنفوني الأولى » بأنه نتاج مضطرب ، ومفكك .
لشباب مغرور » .

وكان النقد الذي وجه إلى السنفوني الثانية لا يقل عن هذا النقد
المتقدم قسوة ومرارة .

لم يعبأ « بيتهوفن » بمثل هذا النقد الذي كان يوجه إليه ولا
الحفلات التي كانت تشن على نتاجه ، بل ولم يعبأ بالدفاع عن نفسه ،
ذلك بأنه كان يعتقد في معاصريه من الملحنين والعازفين القصور عن
تقدير نتاجه ، وأنهم أقزام لا يتناولون إليه في هذا الميدان .

ومن شذوذ طباع « بيتهوفن » ، وصلابة رأيه ، أنه لما حضر
« كليمتي » العازف الماهر بالبيانو ، والملمحن التقدير إلى « فينا » عام
١٨٠٢ حيث أحيى فيها ، هو وتلميذه « كلنجل » بعض الحفلات ،
اعتزم « بيتهوفن » زيارته . غير أنه ترامى إليه أن « كليمتي » يرى
ضرورة أن يبدأ « بيتهوفن » الزيارة أولاً لأنه ضيف تقضى التقاليد
بتقديم زيارته ، فعدل « بيتهوفن » عن هذه الزيارة . وعجيب أن تشاء
الصدفة أن يجلس للفداء على مائدة واحدة « بيتهوفن » مع تلميذه
« ريس » و « كليمتي » مع تلميذه « كلنجل » ، ورغم أن كلا منهم
عرف شخصية الآخرين فإنهم لم يتبادلوا التحية إطلاقاً .

ومن مفاخر « بيتهوفن » وقتئذ ما حدث له مع الموسيقار « شتايبيل »
الذي كان من أمهر العازفين بآلة « البيانو » حتى ذاع صيته في
« باريس » واشتهر بهذه المهارة شهرة عظيمة . حضر إلى « فينا »

مقابل مع « بيتهوفن » عند النبيل « فريز » . وعزفت إحدى ثلاثيات « بيتهوفن » فاشترك « شتايبيل » في عزفها ، ولكن « بيتهوفن » لاحظ أن هذا الموسيقار يعامله بكبرياء ، وأن عبارات الثناء التي وجهها إليه كانت فاترة . سكت « بيتهوفن » على مضض ثم عزفت إحدى خماسيات « شتايبيل » ، وفي نهايتها أخذ المؤلف يرتجل على البيانو ألحانا رائعة أعجب بها الحاضرون أيما إعجاب . انتهت الحفلة ، وانصرف الحاضرون

وبعد ثمانية أيام من ذلك اجتمع الفنانان مرة أخرى في بيت ذلك الشريف ، فبدأ « شتايبيل » في هذه المرة بخماسية حازت نجاحا باهرا ثم انتقل منها إلى ارتجال على البيانو كان رائعا بديعا ، تناول فيه الفكرة الموسيقية التي سمعها منذ ثمانية أيام من ثلاثية « بيتهوفن » . كان عزفنا متقنا ، وأداء بديعا ، إنما كان جليا أن ذلك لم يكن مرتجلا لساعته بل كان معداً سبق التدريب عليه من قبل

عندئذ تقدم « بيتهوفن » إلى البيانو وأخذ يرتجل عليه ارتجالا رائعا بناه على الفكرة الموسيقية التي سمعها توا من خماسية « شتايبيل » في هذه الحفلة ، وأخذ يبني على هذه الفكرة ألحانا معجزة ، وأنغاما ساحرة ، وكان كلما توغل في عزفه وحلق في سماء ابتكاراته المدهشة تضائل « شتايبيل » وصغر فنه في نظره حتى انسحب من الحفل خزيان أسفا .

سينفوني لبطولة وأويرا "فيديليو"

كان «بيتهوفن» يدين في مذهبه السياسي بنظام الحكم الجمهوري .
عاصر الثورة الفرنسية ، وكان وطنه أكثر البلاد تأثراً بتلك الثورة
لمجاورته للبلاد الفرنسية
كان مبدأ الحرية والمساواة ، الذي قامت على أساسه الثورة
الفرنسية ، عميق الأثر في نفس الفتى «بيتهوفن» ، فتعشقه ، وتمنى لو عم
جميع الأقطار . وكان «بيتهوفن» يكبر مبادئ أفلاطون التي أودعها
«جمهوريته» ، ويرى فيها المثل الأعلى لجميع حكومات العالم ، ولذلك
تمكنت منه وسرت في لجه ودمه .
ولهذا أيضاً كان «بيتهوفن» شديد الإعجاب بانقنصل «نابليون
بونابارت» .

وكان يرى فيه البطل الذي يحقق له المثل الأعلى الذي يدين به
في قواعد جمهورية أفلاطون ، وفيه بداية سعادة العالم .
اعتزم «بيتهوفن» أن يخلد هذا البطل الذي يكن له في قلبه أكبر
نصيب من الإعجاب في إحدى مقطوعاته الموسيقية الكبيرة .
بدأ تأليف تلك المقطوعة في خريف عام ١٨٠٢ ولكن قامت

العوائق في سبيله فلم يتمكن من إتمامها إلا بعد عامين وكانت هي
« السنفوني الثالثة » .

كتب « بيتهوفن » بخطه على أولى صفحاتها كلمة « بونابرت » .
وتلك السنفوني يمثل جزؤها الأول البطل بين الحياة والموت . ويعبر
الجزء الثاني منها عن الاحتفال بالجنّة في مارش حداد بلغت الموسيقى
فيه مبلغا لا يلحق له غبار . ويمثل الجزء الثالث تجمع آلات الحرب
وسكونها على قبره . أما الجزء الرابع وهو الأخير فتعبير عن موازاة الجنّة
ومأساة البطولة .

وكان المنتظر أن ترسل هذه السنفوني إلى بطالها بباريس عن طريق
الوزير المفوض لفرنسا في « فينا » ولكن حدث ما أوقف هذه الخطة
وحولها عن تلك الطريق .

دخل « ريس » على أستاذه « بيتهوفن » ينبئه أن « نابليون
بونابرت » نودى به قيصراً على فرنسا . فجاء هذا الخبر « بيتهوفن »
فاستبعد تصديقه حتى أطلعه تلميذه عليه في الصحف .

قرأ « بيتهوفن » تفاصيل الأمر وعلم أن مجلس الشيوخ قرر في
جلسته المنعقدة في ١٨ من مايو سنة ١٨٠٤ تنصيب بطل الجمهورية
قيصراً على « فرنسا » ومنحه لقب « نابليون الأول » وأن يكون الحكم
وراثه له ولذريته من بعده .

جهد الدم في عروق « بيتهوفن » واستشيط غيظاً حتى أمسك بكرامة
القطعة الموسيقية فمزق غلافها ثم رمى بها إلى الأرض وداسها بقدميه وهو يقول:

« ليس بونا بارت إذن خيرا من الآخرين ، فهو أحد البشر ، يدوس برجله غدا حقوق شعبه بعد أن تعلمه القيصريّة كيف يكون ظلما وقد كان بالأمس نصير حريته »

وأراد « ريس » أن يرفع الكراسية عن الأرض ، فنهاه أستاذه قائلا : « دعها تداس فقد داس آمالي » .

ولما قضى « بونا بارت » نحيبه بمنفاه في « سنت هيلانه » قال بيتهوفن : « لقد تنبأت له قبل سبعة عشر عاما بهذا المصير ، فعبرت عنه في موسيقي تعبيرا كاملا » (يشير في ذلك إلى مارش الحداد في تلك السنفوني).

هذه قصة السنفوني الثالثة التي أطلق عليها فيما بعد اسم (سنفوني البطولة Eroica) وهو الاسم الذي لا تزال تعرف به إلى اليوم .

كان أول ماعزفت في قصر الأمير « لوبكوفتش » فلم تصادف نجاحاً ، ولم يدرك الناس غايتها ، حتى حضر إلى فيينا البرنس « لويس فردناند » وكان رجلا عبقريا وملحنا كبيرا ، وعازفا ماهراً بالبيانو سبق أن تعرف إلى « بيتهوفن » أثناء زيارته لبرلين فأعجب بنبوغه الفياض وعبقريته السامقة .

زار هذا البرنس الأمير « لوبكوفتش » في قصره فسمع أحدث مؤلفات « بيتهوفن » وهي سنفوني البطولة فبلغ من إعجابه بها أن طلب استعدادتها حالا فأجيب إلى طلبه . وما استراح الموسيقيون ساعة حتى استعدادها البرنس في حرارة . ومن هذا الحين بدأ نجم تلك السنفوني يتألق في سماء الخلود ، وبدأ الناس يدركون ما في موسيقاها من عظمة وروعة

وفي اليوم التالي تلقى «بيتهوفن» من الأمير لوبكوفتش هدية نفيسة ،
سلسلة ذهبية من صياغة البندقية .

وأقامت إحدى النبيلات حفلة مسائية تكريماً للبرنس «لويس
فردناند» ، دعى إليها «بيتهوفن» فلما حان وقت الطعام لاحظ بيتهوفن
أن مكاناً خاصاً أعد للشخصيات الممتازة من الأشراف والنبلاء ، ولم
يكن بيتهوفن من بينهم فعز ذلك عليه وعده إهانة بالغة ، فغادر المجلس
غاضباً ، تتطير من فيه ألفاظ الحق ، واندفع ضارباً الباب خلفه .
هنالك قسا المدعون عليه بعد خروجه في توجيه أقذع ألفاظ اللوم
إليه . ورموه بجهل آداب الاجتماع . أجمع كلهم على ذلك إلا البرنس
«فردناند» فإنه قال :

«لو كنت أنا «بيتهوفن» لما فعلت غير ذلك» .

وسواء أكان هذا خطأ أم صواباً ، فقد كان هذا مبدأ «بيتهوفن»
الذى يدين به ، والذي اضطر الأمراء والأشراف للخضوع له ، وأن
يتخذوا البيتهوفن من عظمتهم لقباً مساوياً لألقابهم الوراثية ، فقد أولم
البرنس نفسه بعد بضعة أيام من هذه الحادثة وليمة غداء دعى إليها
السواد الأعظم من مدعوى الحفلة السابقة من الأشراف والنبلاء ،
وكذلك النبيلة صاحبة تلك الدعوة ، ودعى إليها «بيتهوفن» أيضاً .
جلست النبيلة صاحبة الدعوة الأولى وإلى يمينها البرنس صاحب هذه
الليمة ، وإلى جانبها الآخر جلس «بيتهوفن» لا يعلوه في المجلس
أمير ولا وزير . ولم لا يكون ذلك ، والأمراء وإن أنعمت عليهم

القيصرة والملوك بأعلى الرتب ، وأسمى النياشين ، فقد أنعم الله على « بيتهوفن » بأعلى المواهب وأسمى العبقريات البشرية .

وشاء القدر أن يحرم البرنس « فردناند » من سماع سنفونى البطولة مرة أخرى فقد مات بعد ذلك بعامين ميمته شريفة فى ساحة القتال بإحدى المواقع الحربية .

كان من عادة « بيتهوفن » أن ينتج أكثر من قطعة فى وقت واحد ، وأن يبدأ العمل فى مقطعتين أو أكثر معاً حتى أطلق على بعض مقطوعاته (التوائم) إشارة إلى تخريجها فى وقت واحد .

وقد شغل « بيتهوفن » نفسه فى أثناء تأليفه سنفونى البطولة بتأليف آخر لا يقل عن هذه السنفونى عظمة وخلوداً .

أعيد بناء أحد مسارح « فينا » وتقرر افتتاحه فى نهاية عام ١٨٠٤ واقترح مديره على « بيتهوفن » أن يلحن له إحدى الأوبرات لهذا الغرض

رحب « بيتهوفن » بهذا الاقتراح ، ووجده فرصة سانحة للسكر فى ميدان بلغ فيه « موتسارت » أوج العز والفخار . وهل هناك ميدان أوسع للشهرة من الموسيقى المسرحية ، يجتمع فيها إلى جانب الفن الموسيقى روعة الإخراج ، وتأثير المسرح ؟

وفى « بيتهوفن » لا يجاد الرواية ، وكان مؤلفها « بوللى » الفرنسى وقد سبق تلحينها من قبل . وترجمت نظماً إلى الألمانية .

أعد البارون « فون براون » مدير المسرح الجديد مسكناً به

لبيتروفن خاصة ومنحه إياه بائجان مدى عام ، ولكن « بيتروفن » لم يرق في عينيه هذا المسكن فاستأجر له مسكناً آخر في « البيت الأحمر » وكان يسكن فيه صديق له من مدينة « بون » هو « ستيفان فون بروبلنج » الذي استدعى إلى « فينا » مستشاراً للقيصر .

ولما كان الوقت صيفاً فقد استأجر « بيتروفن » مسكناً ريفياً في « ديبلنج » إحدى الضواحي الجميلة لمدينة فينا . غير أن « بيتروفن » وكانت أعماله تضطره للتردد كثيراً على المدينة وكان يخشى عدم تفرغه لعمله في مسكنه بالبيت الأحمر لوجود صديقه به ، فقد استأجر مسكناً آخر بالطابق الرابع في منزل البارون « باسكوالاتي » في « فينا » . وكان كثير التنقل من هذا البيت والعودة إليه ، حتى قال البارون لوكيله : اترك هذا المسكن خالياً فسيعود إليه « بيتروفن » .

وهكذا كان « بيتروفن » يسكن في أربعة مساكن في وقت واحد . انكب « بيتروفن » على عمله في أوبرا الجديدة ، وعكف على إنجازها حتى انقطع عن الناس في الربيع والصيف من عام ١٨٠٥ ، واعتزل الناس وتجنب الحياة العامة في تلك الفترة إطلاقاً . وفي نهايتها كان قد أتم تلحين الأوبرا « فيديليو » أو « الحب في الزوجية »

وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٥ ظهرت أوبرا « فيديليو » على المسرح لأول مرة . وكان حظ « بيتروفن » في هذا العرض عائراً إذ كان اختيار الوقت الذي تحدد لظهورها غير مناسب ، فقد دخل الفرنسيون « فينا » قبل هذا التاريخ بأسبوع واحد ، وغادر المدينة رجال البلاط

وكبار الموظفين ، وطائفة الأشراف والنبلاء ، وصارت الجنود الفرنسية تجوس خلال المدينة ، وتجوب طرقاتها ، وتنقل في الأحياء الأرستقراطية المقفرة من أهلها .

أما أهل « فينا » فقد شغلهم هذا الظرف العصيب عن التفكير في الموسيقى والاتجاه إلى المسرح . لهذا فقد كان المسرح خلواً من المشاهدين النمساويين حافلاً ببعض الشيء بالجند الفرنسي ، أما المقاصير ، والأماكن المعدة للأشراف والنبلاء عادة فقد احتلها الضباط الفرنسيون . وإذن فقد اخفت أوبرا فيديليو .

لقد بلغ « بيتهوفن » في تأليفه الآلى قمة المجد ، وغاية العظمة ، أما تأليفه الغنائى فكان قليلاً نادراً ، ولذلك فإنه لم يراع في تلحين هذه الأوبرا أن تكون المناطق الصوتية لأغانيها مناسبة لحناجر القاعين بأدوارها من المغنين والمغنيات ، وهو ما كان يحرص عليه ملحنو ذلك العصر ، إنما صاغ بيتهوفن هذه الأغاني كما يجب أن تكون . فتطلب أدائها من المغنين والمغنيات مجهوداً شاقاً وصعوبة بالغة ، ورغم ذلك فقد أجادت بطة الرواية التى قامت فيها بغناء دور « ليونورا » إجادة فائقة . كانت تلك المغنية « أنا ميلدر Anna Milder » فتاة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، لم يخصصها الله بجمال رائع فحسب ، بل حباها كذلك صوتاً ملائكياً ساحراً ، استولى على « بيتهوفن » نفسه وأحبها حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى أنها هى المعنية بالرسالة السابقة المذكور التى بدأها بقوله : « إلى الحبيبة الخالدة » ولكن هذا الزعم ضعيف .

مثلت تلك الأوبرا خمس مرات فقط، في غير نجاح، كانت دار المسرح في خلالها تكاد تكون خالية ثم أهملت بعد ذلك. وحتى في هذه السكارثة الفنية لم يرحمه الناقدون ورهط الحاسدين والمعارضين، فأمطروا الرواية نقداً مرأً، قاسياً. ولا تزال هذه النقداً محفوظة تشهد بما لاقاه ذلك الموسيقار الخالد من عسف الحسد وعنت الحقد.

وإذ كانت «الأوفرتير» (مقدمة الأوبرا) آلية بحتة فقد أكثر عزفها خارج المسرح، ولكن الجمهور لم يستسغها بل رآها طويلة نابية فسقطت هي أيضاً.

وحاول الأمير «إيشنوفسكى» أن ينقذ «بيتروفن» من سقطته هذه فعمل على ظهور هذه الأوبرا في برلين، وأرسل بها إلى الملكة «لويزا» زوج «فردريك ويلهلم الثالث» وكانت مشغوفة بالموسيقى، محبة لكل نتاج عبقرى فيها. ولكن أسناده البيانو في قصرها، صرفها بعد دراسته لهذه الأوبرا عن تمثيلها بدعوى أنها لا تستحق. ولم يكن هذا الأستاذ غير الموسيقار «هيمل» الذى ناصبه «بيتروفن» العداوة فى أثناء زيارته لبرلين فتحداه فيما ارتجله من العزف بالبيانو.

كان سقوط الأوبرا «فيديليو» ضربة قاسية أصيب بها «بيتروفن» أوقعته فى حرج مادمى شديد، ذلك بأنه كان وقتئذ فى ضائقة مالية، وضيق مستحكم، وكان يرى مخرجه الوحيد من تلك الأزمة فيما يربح من هذه الأوبرا فيكسب منها ما يسد حاجته، ويفرج كرتته. ولكن التعاقد

بينه وبين مدير المسرح كان ينص على أن تكون مكافأة التلحين نصيباً معيناً من دخل «الأوبرا». وكان ماخص «بيتهوفن» من دخل تلك الليالي الخمس لا يزيد على سبعة عشر جنيهاً .

ولك أن تتصور مدى نكبة «بيتهوفن» في تلك الأوبرا مما دفعته اليه الحاجة الملحة والفاقة الممضة من تقديم طلب إلى مدير المسرح ليعينه فيه مؤلفاً للأوبرا والأوبريت فلم يؤد سوء تقديره لعدم توظيفه فحسب بل للضن بالرد عليه إطلافاً .

حزب الأمر الموسيقار فاضطرته الحاجة أن يسأل شقيقه الأصغر «يوهان» — وكان قد أصبح ذا ثروة كبيرة — قرضاً يستعين به في أزمته .

ولم يكن هذا الألم المادى على فداحته إلا شيئاً يسيراً إلى جانب الألم النفسى الذى أصيب به «بيتهوفن» فى دخيلته لفشل عمل فى كان يعتقد أنه من أعظم نتاجه . لقد خيل إليه أن المركز الوطيد الذى تدعم له فى عالم الموسيقى بدأ يتقلقل تحت قدميه . كانت فترة يأس مريرة كادت تقضى عليه فأخذ يناجى نفسه : «إلام تبقى تلك الموسيقى التى تصدر من أعماق نفسى وأودعها كل ما أملك من قوة وفن ، مغمورة غير مفهومة ؟»

لم تدع عبقرية «بيتهوفن» الوثابة مجالاً للأجاة على تلك المناجاة اليائسة ، بل ساقته إلى متابعة الإنتاج ، فأبدع «السنفونى الرابعة» ، التى فرغ منها سنة ١٨٠٦ وكان عزفها لأول مرة فى عام ١٨٠٧ حيث

عزفت مرتين في ذلك العام دون أن تصادف ماتستحقه من التقدير .
وفي ربيع عام ١٨٠٦ اعتزم «بيتهوفن» بعد إلحاح أصدقائه أن
يبعث أوبرا «فيديليو» من جديد ، فأكب على مراجعتها وتناول
الكثير منها بالحذف والإضافة ، والتبديل والتغيير . وقام «ستيفان
فون برويننج» بتحويل كبير في النظم حتى جعلها فصلين بدلا من
ثلاثة . وفي ٢٩ مارس سنة ١٨٠٦ ظهرت تلك الأوبرا باسم جديد هو
«ليونورا» .

وغنت «أنا ميلدر» دور البطولة هذه المرة أيضاً فأبدعت غاية
الإبداع وحازت عظيم رضاء بيتهوفن ، وشديد إعجابه .
غير أنه برغم ذلك كله لم يكتب لهذه الأوبرا الخالدة النجاح المرجو
فأهملت مرة أخرى بعد أن مثلت مرتين فقط .

وكان قد غير «بيتهوفن» مقدمة (أوفرتير) هذه الأوبرا لثالث
مرة ، فصارت عرضاً موسيقياً لجميع حوادث الرواية وتعبيراً صادقاً عن
كل مايجرى فيها من مختلف المواقف ومايحويه من شتى العواطف
والمشاعر مما جعلها درة موسيقية نادرة . وهذه المقدمة تعزف في الوقت
الحاضر عادة بين الفصلين الأول والثاني .

كان في سقوط «فيديليو» في هذه المرة أيضاً بعد مايدل فيها
من جهد ، صدمة قاسية وضربة عنيفة أصيب بها «بيتهوفن» وهو
المعتد بفته ، المعز بقوته فيه . وفي الحق إن موسيقى هذا الفنان العبقري
الجبار كانت فوق طاقة معاصريه . ولم يقتصر الأمر في ذلك على جمهرة

الشعب وعامته فحسب بل العجيب أن يكون هذا النتاج الفنى فوق مستوى أفهام الخاصة ، بل ويسمو أفهام أعلام الموسيقى فى عصره ، حتى المؤلفين منهم ، فإن الموسيقىار « سالييرى » وهو شيخ الموسيقى ورئيسها فى البلاط ، وكان العدو المنافس لموتسارت وأستاذ « بيتهوفن » فى صباه قد حضر تمثيل هذه الرواية فى إحدى الليالى ثم خرج يرافقه الموسيقىار « كلاينهاينز » مدير الفرقة الموسيقية فتحدث إليه يقول :

— إن « بيتهوفن » ملحن غريب ، يتدرج على السلم فيصعد إلى الدور الأول ، ثم إلى الثانى ، فالثالث ، فالرابع ، حتى يبلغ قمة المنزل وإذا به يقفز فجأة من نافذة فى القمة إلى الأرض ، أنا لا أستطيع أن أدرك ذلك .

فأجابه « كلاينهاينز » :

— أنا لا أفهم أيضاً ، إنما أستطيع أن أوكد لك أننا إذا صعدنا فى تآليفنا إلى مثل ما يرتفع إليه « بيتهوفن » ثم رغبنا فى الهبوط على درجات السلم فى هدوء وهوادة فإن نصل إلى الأرض إلا مهشمى الرؤوس .

بيتهوفن كإنسان وفنان

جاوز « بيتهوفن » منتصف العقد الرابع ، وكان مظهره قوياً ، ضخم الجسم ، في غير بدانة ، ربع القامة ، أسمر البشرة ذا شعر أشعث ، يدور حول رأسه الكبير كأنه معرفة الأسد ، ذا أنف عريض أفطس ، تملوه عينان سوداوان ، برز من فوقهما جبين عريض .

ولم يكن في الزي متأنقاً يتوشح منه أجد طراز ، إنما كان يرتدى عادة سترة من نوع « الفراك » ذات لون ناصع الزرقة وأزرار مذهبة ، وأحياناً سترة من نوع « الريدنجوت » ذات لون نبي ، أو أخضر غامق ، أما سرواله (البنطلون) فكان رمادي اللون . ويلف حول رقبته رباطاً كبيراً على شكل عقدة أمامية .

أما قبعته فكانت قبعة عالية صلبة ، وأحياناً كان يتخذها من الجوخ ، عريضة الدائر ، أما في الصيف فكانت قبعته من الخوص . كانت حياة « بيتهوفن » فناء في فنه وانقطاعاً له وانصرافاً إليه ، وكان في مظهره جاداً عابس الوجه ، وإن كان قبل أن يصاب بالصمم ، كثير الدعابة ، حلو الفكاهة .

كانت قدرته على كتم إحساسه عجباً ، فكانت ملامح وجهه لا تتم إطلاقاً عن تأثيره النفسي إذا ما شاهد مسرحية أو حضر حفلة ، ومحال أن تقرأ في أساريره ما يشعر به من الإعجاب أو التبرم ، لكنه كان ، إذا لم يعجبه شيء ، يتسلل من المكان في صمت .

وكان « بيتهوفن » ككل عبقرى عظيم ، أعداء ومعارضون ينفسون عليه نبوغه . وكان شذوذ طبعه ، ومفارقات تصرفاته ، تجعل العامة ترى فيه شخصية غريبة . وكان معارضوه وحاسدوه من زملائه الفنانين والناقدين يضعون العراقيل في سبيله . لكن شخصية « بيتهوفن » كانت قوية جبارة تشق طريقها في الفن والحياة دون أن تحفل بما يحاك حولها ، وكانت تصد كل ما يعترضها في قوة ، وشدة لا تعرف الهوادة ولا اللين حتى ولو خرج في ذلك عن حدود الليقان والأدب .

حدث مرة أن دعى لحفل في قصر أحد الأمراء . وإذا بأحد النبلاء من المدعوين يسأله في كبرياء عما إذا كان يفهم أيضاً في آلة الكمان !!! لم يجبه « بيتهوفن » على سؤاله ، وتسلم من الحفل ، وعبثاً حاولوا الاهتداء اليه . وفي اليوم التالي تلقى الأمير صاحب الدعوة من « بيتهوفن » الرسالة التالية :

« أيها الأمير ، إنكم لمدينون بمرکزكم للصدقة والوراثة ، أما أنا فمدين بمرکزى لنفسى . إن الأرض تحمل على ظهرها وفرة لا تنقص بل تزايد من الأمراء ، ولكنها — على طولها وعرضها — لا تحمل إلا « بيتهوفن » واحد » .

وحدث مرة أن شهد حفلاً مسائلاً بقصر الأمير « زاسيوموفسكى » فلما جلس هو وتلميذه « ريس » يعزفان معاً إحدى مؤلفاته الخاصة بأربع أيدي على البيانو ، قعد عند مدخل الغرفة المجاورة شاب من النبلاء يتحدث إلى سيدة حديثاً ، في صوت مرتفع ، ولم تُجد المحاولات في

إسكاته . وفجأة أبعث يتهوفن يدي تلميذه عن البيانو ، وقام نافرأ عابس الوجه مقطب الجبين ، يخاطب الجمع ويقول : « إننى لأعزف لمثل هؤلاء الخنازير » . وضاع الجهد الذى بذل لإعادته إلى العزف ، بل شاء أن تكون هذه الحادثة نهاية للحفلة وختاماً للموسيقى .

كانت أمثال هذه التصرفات القاسية تحدث منه كثيراً ، ولكنه كان يندم عليها بعد أن يعود إلى هدوئه واطمئنانه نفسه وكان يعتقد أن الحافظ له على مثل هذه التصرفات إنما هو إطراد ضعف سمعه الذى جعله يسخط على كل الناس . ولكنه كان طيب القلب مفرطاً فى الطيبة ، سريع النسيان لما يصيبه من الناس من أذى وسوء . وبلغ من غرابة أطواره ، وشذوذ طبعه ، أن كان لا يرضى البقاء فى مجلس لا يرتاح لأحد الناس فيه فإذا قصد أحداً فى زيارة ، أو دعوة ، أطل أولاً برأسه من الباب ، فان لمح فى الجماعة أحداً لا يرتاح إليه قفل راجعاً .

ولئن كانت ثقافته العامة التى حصلها فى صغره بالمدرسة محدودة غير كافية لقد عرف كيف يستعويض عنها بثقافته لنفسه بمواصلة القراءة والاطلاع ، حتى ألم بنواحي الأدب المختلفة ، قديمها والحديث .

وكان « شكسبير » أحب الشعراء إليه . وما أكثر التشابه والتقارب بين أبطال روايات « شكسبير » وأبطال موسيقى « يتهوفن » حتى أن أعلام الكتاب عندما يقابلون بين الموسيقيين والشعراء يضعون « يتهوفن » و « شكسبير » فى صف واحد . كذلك أكسبته كثرة المطالعة فى كتب التاريخ ، دراية واسعة ، وفكرة واضحة فيه .

أما اللغات فلم يكن يعرف إلى جانب لغته الألمانية غير اللغة الفرنسية التي كان يجيد قراءتها وكتابتها ، ولا يحسن التكلم بها .

وقد يكون الحساب أضعف نواحيه . وقد اشترى في الأيام الأولى من إقامته بفينا كتاب « مبادئ الحساب التجاري » إلا أنه لم يكن له في أمثال تلك الكتب فائدة تذكر فظل طوال حياته ضعيفاً في هذه الناحية ، حتى لقد وجد على مصراع نافذة في مسكنه في « بادن » الرقم ٣٥ مكتوباً مرتين ، أحدها تحت الأخرى ، أسفلهما حاصل الجمع ، وذلك تفادياً من صعوبة عملية ضرب هذا الرقم في ٢

أما في مسكنه فكان الفنان « البوهيمي » . كل شيء مشوش غير مرتب ، منقلب رأساً على عقب . فترى مبعثراً على الأرض أصول المقطوعات الموسيقية ، وأوراق النوتة منشورة هنا وهناك ، وقصاصات من الورق ، ورسائل ممزقة ، وملابس ملقاة فوق السرير . أما البيانو فقد سكب عليه المداد . ويرى المرء على المنضدة أواني مكسرة ، وزجاجات بغير رقاب . تزين جدران غرفته صورة جده « لودفيج » في سترته الحمراء وقبعته المدلاة إلى الجانب .

وهذه الصورة كانت متاع الأسرة الوحيد الذي حمله معه من « بون » إلى « فينا » .

كان « بيتهوفن » يستيقظ مبكراً ، فلا يعدو في نومه الخامسة أو السادسة صباحاً . شغوفاً بالاغْتَسال بالماء البارد حتى لتجد في موضع الاغْتَسال بالغرفة عدة أوان ملأى بالماء ، فإذا اغْتَسل وقف في قميصه يصب على يديه ماء

آنية بعد أخرى وهو يغمغم ، ويصوت ، لا يلحظ في ذلك أن الماء يجري من تحته ، حتى يرى نفسه كالأوزة في البحيرة . وكثيراً ما كان يقطع هذه العملية فتراه يحمق فجأة بنظره ، ويسير إلى المنضدة بعينين جاحظتين مخيفتين فيكتب بضع نوتات على ورقة ثم يعود فيستأنف عمليات الاغتسال والغمغمة والتصويت . وكان يفعل ذلك عشرات المرات في الاغتسال الواحد . وكان أكره الأشياء لديه ، أن يزعجه أحد في هذا الوقت ، فقد كان خبر أوقاته للإنتاج . وكثيراً ما نسي نفسه حتى كان الماء يطفح إلى جيرانه من السكان فتكون المشادة بينه وبينهم ، أو بينه وبين صاحب الدار أما شرابه فكان الماء المعدني الصافي ، يشربه من الصباح حتى المساء . أما قهوة الصباح فكان يجهزها هو لنفسه ، وكان شديد العناية بصنعها حتى ليعد ستين حبة من البن للفنجان الواحد ، إذ كان لا يثق بأى معيار آخر . وبعد الفطور يزاول عمله حتى الثالثة مساءً حيث يتناول طعام الغداء في أحد المطاعم المتواضعة . وكان السمك أحب الأطعمة إليه . وكان لا يأكل في الوجبة إلا صنفاً واحداً . وفي ذلك يقول :

« إن الإنسان لا يرتفع عن الحيوان إلا قليلاً إذا كانت بهجته في الحياة مقصورة على تنويع ما يتناوله من الأطعمة » . وكان يميل كذلك لشرب النبيذ . فإذا انتهى من غذائه قام للتجوال حول المدينة مرة أو مرتين ، لا يهتم في ذلك شمس محرقة ، أو مطر غزير ، أو ريح صرصر ترميه في وجهه بالبرد . يتنقل بين الغابات والأحراش مستلهماً منها أفكاره الموسيقية ، ويستمد من الطبيعة ألحانه الساحرة كما تستمد النحلة حلو

شدها من تنقلها فوق مختلف الأراهير .

وكان يهتمون بحرص جدا الحرص على أن يكون معه في هذه التجولات أوراق النوتة ، فإذا ألهم لحنا جلس يدونه ، ثم يستأنف تجواله . وينسى أغلب الأحيان قبعته .

حدث مرة أن خرج في تجواله صباحاً ليقوم بنزهة صغيرة ، سار على شاطئ النهر ، وغاص في أفكاره ففسى نفسه ، ونسى أن يعود ، وسائر النهر حتى حلت العشية وإذا به في منطقة غريبة لا يعرفها ، ولا يعرفه أهلها ، وصل إليها منهوك القوى مغبراً ، وكان عارى الرأس في ملابس رثة فتخيله القوم سائلاً واحتجزه البوليس .

ذهب الجندي إلى رئيسه وكان في أحد المطاعم مع أصحابه فقال :

— سيدى الرئيس ، لقد قبضنا على شخص مجهول وهو دائم الصياح إنه « بيتهوفن » ولكنه رث الهيئة وبغير قبعة ، يرتدى ملابس ممزقة وليس لديه ما يثبت شخصيته .

أعطى الرئيس أمره باحتجاز الرجل إلى اليوم التالى ، حتى يتبينوا أمره ويعرفوا شخصيته . ولكن الجندي عاد فى الساعة الحادية عشرة مساءً يخبر رئيسه ثانياً أن المقبوض عليه نأثر دائم الصياح والضجيج ، ويطلب استدعاء « الهر هرتسوج » مدير الموسيقى لتخليصه .

استدعى المدير المذكور ، وما كاد يراه حتى احتضنه وهو يقول :

— هذا هو « بيتهوفن » أعيده مكرماً إلى منزله فى الحال .

وفى اليوم التالى أقبل عمدة هذه الجهة فى سيارة البلدية يحمل اليه

هدايا من الثياب وغيرها، مقدماته عظيم اعتذاره على ما فرط منهم نحوه بالأمس .

كانت العواصف أحب المظاهر الطبيعية إليه ، يروق له منظر نكاثف السحب المظلمة ، ثم لمعان البرق ، وصخب الرعد ، إذ كان ذلك أنسب الأشياء إلى طبعه

وكان أحب الأوقات لارتجاله ساعة الفجر ، يرتجل على آلة البيانو ، أو يمسك بآلة الكمان ، أو الفيولا .

وكان إذا خرج ليلاً يقصد إلى مطعم ذي غرفة منعزلة لها مدخل خاص فإن تقابل معه فيها بعض أصدقائه المقربين انشرح صدره ، واستبشر ، وقضى معهم فيها وقتاً طويلاً ، فإذا أزعجه غريب ، جعل جلسته قصيرة نادرة . وكان طعامه في المساء نوعاً من السمك المملح والجبن مع كوب من شراب البيرة يدخن بعدها غليونه وهو يطالع في صحيفته السيارة (صحيفة أوجسبورج) التي كان جد مغرم بها يقرأها من بدايتها لنهايتها .

وكان بسبب انشغال باله ، واتشت فكره كثيراً ما ينسى دفع حسابه للمطعم ، فإن كان الخادم على غير معرفة به جرى بينهما فصول غير مستحسنة . وكان لا يطيق إساءة أحد له وخاصة في مثل هذه المواقف ، فإن أحس بسوء الخدمة في المطعم ، أو بتقصير في الرعاية له خرج عن المألوف وكاد يكون غليظاً جافياً ، حتى لقد حدث مرة في أثناء غذائه بأحد المطاعم أن تغيظ من الخادم فبلغ به الحنق ، وثوررة الغضب أن سكب الطعام كله على رأس الخادم ، فلما هداً أجزل له العطاء فأرضاه .

وكان في أثناء تجوله حول المدينة في الأحرش والغابات كثيرا ما ينسى نفسه فيعود الى مسكنه في ساعة متأخرة من الليل .

خرج مرة هو وتلميذه « ريس » للتربص في غابات ضاحية « ديبلنج » فهاما فيها وقد شغل كلاهما بالتفكير حتى جن عليهما الليل . كان « بيتهوفن » طوال الطريق يغمغم وينغم ، تارة بصوت حاد ، وأخرى بصوت غليظ ، فلما سأله « ريس » عما يفعل أجابه « لقد وجدت الفكرة التي أنشدها لختام قطعة السوناتا » . وما كادا يصلان البيت حتى قصد « بيتهوفن » إلى البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه أكثر من ساعة . وما كانت أعظم دهشته عندما قام بعد ذلك فوجد تلميذه جالسا في إحدى زوايا الغرفة ينتظره .
لقد نسيه بتاتا فلما رآه قال له :

— أنا لا أستطيع اليوم إعطاءك الدرس ، اذ لا بد أن أوصل عملي ولم تكن هذه الغممة ولا ذلك التنغم ، ولا تلك المداعبة لمفاتيح البيانو إلا اللحن الرائع الذي ختمت به السوناتا فامينير . تلك السوناتا الخالدة التي سميت فيما بعد « المشاعر Appassionata » .

بِسْمِ خَاطِفَتِ

في ربيع عام ١٨٠٧ ظهر الموسيقىار « كليمنتي » في فينا مرة أخرى ولا يزال ماثلاً للأذهان حادث مقابله الأولى لبيتهوفن في فينا وامتهانه إياه وزعمه التفوق عليه في العزف بالبيانو حتى قهره « بيتهوفن » في حفل ضمهما معاً وأرغم « كليمنتي » على الانسحاب خجلاً .

أما الآن فقد نشأت بينهما علاقة جديدة ذات لون آخر غير ذلك اللون الذي تقدم ذكره ، ذلك بأن « كليمنتي » قد افتتح في مدينة « لندن » محلاً تجارياً للموسيقى ، ورغب أن يتعاقد مع « بيتهوفن » للحصول على حقوق بعض مؤلفاته ، فتم التعاقد .

أعطى « كليمنتي » « بيتهوفن » مائتي جنيه مقابل شراء بعض تلك المؤلفات داخل حدود البلاد الإنجليزية .

وإذ كان الموسيقىار الكبير في أشد الأزمات المالية ، وأخرج أوقات الضيق فقد وجد في هذا المبلغ فرجته ، وقام بتسديد ما كان قد سبق أن اقترضه من أخيه « يوهان » ولم تسعفه الظروف بسداده رغم إلحاح أخيه في استرداد ماله ، لأنه اعتزم شراء صيدلية في مدينة « لنز » .

فلما أحس « بيتهوفن » أن أعباء الحياة قد خفت عن كاهله قليلاً استردت روحه شيئاً من طبيعتها المرحة الطروب واستروحت نفسه السرور يسيراً .

وفي هذا الحين أتم « السنفوني » الخامسة « دو مينير وهي تعبير صادق عن كفاح شديد بين الإنسان ومشاق الحياة ، ووصف رائع لقوة جلده في تلقي ضربات القضاء وفواجع الزهر القاسية . وتبدأ تلك المقطوعة مباشرة بدقات القدر على باب الإنسان الضعيف إيذاناً بإعلان الكفاح الذي يجري بينهما وينتهي بانتصار الإنسان .

وتضى « بيتهوفن » ربيع عام ١٨٠٨ في المدينة المقدسة ثانية — إنما كان شعوره هذه المرة مخالفاً له في المرة الأولى حين بلغ اليأس من نفسه أن حمله على كتابة وصيته .

أما اليوم فهو الفنان الطروب ، المستمتع بما تصبو إليه طبيعته من حب الحياة في الريف ، المغتبط بالتجول بين المناظر الطبيعية الرائعة بين لمروج والغابات ، والجبال والأنهار ، يستلهمها وحيه ، ويستمد منها أسرار فنه .

أثارت هذه المناظر كوامن نفس « بيتهوفن » فكانت « السنفوني » السادسة « المسماة « سنفوني الراعي Pastoral » ، وهي وصف لحياة الريف ، وعرض لظواهر الطبيعة فيه ، وعود إلى الإيمان . كل فكرة في هذه « السنفوني » مستلهمه من الطبيعة ، وكل وحي فيها مستمد مما حوله . وليست هذه « السنفوني » وصفاً مجرداً للحياة ، أو عرضاً لتلك

الظواهر والمناظر ، إنما هي تعبير صادق دقيق عن شعور فياض عميق : تنقلك بدايتها إلى « شعور بالمرح في الريف » وهو الجزء الأول . ثم يعقبه الثاني فيصف لك منظر النهر ويسمك خري الماء ، وتقر يد الطير

ولقد قال « بيتهوفن » لصديق له زار معه تلك الجهات بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ مشيراً إلى هذا الجزء من « السنفوني » أثناء سيرهما وسط المناظر الرائعة :

« لقد كانت الطيور الفردة والبلابل الشادية التي تملأ المسكان تلحن معي » .

ثم يعقب ذلك الجزء الثالث منها وهو عرض نغم لمجلس أنس قروي ، ووصف رائع لمسرات الريف ، لم ينس فيه حتى عازف القرية . ألحان مرحلة مملأى بالدعابة والفكاهة قد تكون من أروع ما أنتجته عبقرية « بيتهوفن » وبيتنا يكون الجمع في نشوته وفرحه ومسراته إذ يفاجأ بعاصفة جوية شديدة تعصف فيها الزوابع ، ويلمع البرق ، ويقصف الرعد ، وتنساقط الأمطار . كل ذلك في نغم حلو وتعبير صادق .

ثم يعقب ذلك لحن الشكر ، يتقدم به الجمع إلى خالقه شكراً على السلامة من شرور هذه العاصفة ، وحمداً له على الخلاص من هذا الخطر . وعجيب أن لا تقابل هذه « السنفوني » التي تعد بحق أروع وأخلد ما أنتجه « بيتهوفن » بما تستحقه من التقدير . كان أول ظهورها في ٢٢ ديسمبر من ذلك العام ، فتلقاها الجمهور بفتور شديد ، ولم تصادف منه قبولا ، ذلك بأن ميل الجمهور وقتئذ كان منصرفاً إلى موسيقى الرقص ، متعلقاً بألحانها الخفيفة . ولكن « بيتهوفن » لم يعبأ بهذا الفتور ، ولم يهتم لحكم الجمهور الذي كان يسميه في مداعباته « حيوان الأضحية » .

ولئن كان نتاج « بيتهوفن » لم يصادف التقدير الذي يستأهله لقد كانت قيمته تتزايد في البلاد الألمانية شيئاً فشيئاً ، حتى تنافس الناشر في صبيال الحصول عليه .

كذلك أصبحت طائفة الأشراف والنبلاء الذين يقدرون الموسيقى ، ويعنون بها في قصورهم تهتم جد الاهتمام بعزفها مقطوعاته في حفلاتهم متنافسين في ذلك ، كما يتنافسون في دعوته إلى تلك الحفلات ، فخورين بحضوره فيها .

وكثر في ذلك الوقت اتصاله بالمجالس ، واختلاطه بالجماعات . وظهرت بعض عنايته بهندامه حتى لقد بلغ حد التأنق أحياناً . وكان في هذه الفترة كثيراً ما يساير رغبات المجتمع ، يحقق لهم ما يطلبونه منه ، حتى أنه لم يتأخر عن أن يعزف لهم أحياناً موسيقى راقصة .

كذلك كثر ظهوره في المطاعم والمحال العامة . وكثر التفاف أصدقائه حوله ، فكانوا يسمرون معه طويلاً ، يتحدثون في الموسيقى والسياسة . كان « بيتهوفن » يشترك معهم في هذا السمر بجسمه فقط . أما تفكيره فكان شاردأ في استلهاهم الإيجاء وصوغ الألحان . فإذا عاد بفكره إلى المجلس فاجأهم بقوله « من بر يمن ؟ » فكان هذا إشارة إلى رجوعه بذهنه إليهم .

ولهذا الاصطلاح قصة ، تلك أن « بيتهوفن » في أثناء قراءته إحدى الصحف الموسيقية ، وقف على نادرة الموسيقىار « بندا » وكان معروفاً بكثرة شرود فكره وتشتت باله ، تلك هي : أن ذلك الموسيقىار سافر إلى

مدينة «دسار» ، فدعى فيها إلى وليمة أقامها له « روست » مدير الموسيقى في تلك المدينة . وكان اغتباط « روست » عظيماً لشريف هذا الضيف داره . وفي أثناء الطعام أخذ صاحب الدعوة يتحدث عن الموسيقى ، وعن أثرها العظيم في النفس ، وتعبيرها الصادق عن مختلف العواطف والمشاعر ، وما إلى ذلك من أدب الموسيقى وفلسفتها . كان « بندا » صامتاً شاردأً يأكل ولا يتكلم ، وإذا سره بوجه خاص شراب النبيذ الذي قدم له ، وأراد أن يحادث مضيفه ولو بكلمة سأله — مجاملة — عن مصدر هذا النبيذ فأجابه « روست » : من برمين . وبعد الغذاء خرجا معاً في نزهة خلوية . وإذا كان « روست » كثير الكلام ، فقد أخذ يفيض في شرح جمال الطبيعة ، ثم انتقل إلى الحديث عن حالته العائلية ، فأخذ يعرض الأطوار التي مر بها أطفاله ، والأمراض التي أصيب بها زوجها وأولاده . لم يسمع « بندا » شيئاً من كل ما تحدث إليه به « روست » . فلما تنبه خجل من نفسه ، وساءه ألا يشاطر مضيفه الحديث . وإذا كان لا يعرف شيئاً عن مادة الحديث وكان يذكر أن آخر حديثهما كان عن النبيذ فقد قاطع حديث « روست » العائلي بقوله : من برمين ؟ .

أعجب « بيتهوفن » بهذه القصة حتى أخذ هذه الجملة إشارة ينطق بها في الجلوس مع الأصدقاء دلالة على عودته بتفكيره اليهم ، واستعداداً لمشاركتهم الحديث .

وكان « بيتهوفن » كثير التسامح ، يغفر لأصدقائه ما يبدر منهم في حقه . فإذا كانت الخطيئة متعلقة بالفن فلا تسامح ولا غفران .

حدث مرة أن عزف « بيتهوفن » لحناً جديداً ألفه فأعجب به تلميذه « ريس » الذي كان حاضراً ، وبلغ من تأثره أن طلب إعادته فأعادته أستاذه فلما عاد « ريس » إلى بيته مر في طريقه بتصر الأمير « ليشنوفسكى » فلم يطق صبراً على إخفاء هذا اللحن الجديد الرائع فدخل القصر وأبلغ أمره للأمير . وألح الأمير في سماعه ، وطالب اليه أن يعزفه على قدر ما تطيقه ذاكرته فعزفه « ريس » حتى ألم به الأمير .

وفي اليوم التالي قصد الأمير إلى منزل « بيتهوفن » وقال له في دعابة « لقد لحننت قطعة جديدة فهل تحب سماعها ؟ » .

وإذ لم يكن « بيتهوفن » محباً للتطلع فإنه لم يظهر رغبة في هذا السماع ولسكن الأمير ألح عليه فأخذ يعزف القطعة التي سمعها من « ريس » والتي كانت أحسن نتاج « لبيتهوفن » .

إن الإنسان ليستطيع أن يدرك دهشة « بيتهوفن » عند سماعه هذا اللحن . لم يغفر للأمير هذه الدعابة ، ولا لتلميذه هذا التعدي فكان جزاء تلميذه « ريس » حرمانه حرماناً قاطعاً من سماع عزف أستاذه . وقد بالغ « بيتهوفن » في الأمر حتى كان إذا حضر حفلاً لا يعزف فيه إلا إذا خرج « ريس » . وقد تمسك به هذا رغم ما بذله الأمير « ليشنوفسكى » وزملائه من السعي في استرضائه ، والحصول على عفوهِ ، ورغم أن « ريس » هو تلميذه المدلل الذي كان دائماً موضع إكرامه ومحبته .

وفي شتاء ذلك العام طلب إلى « بيتهوفن » أن يلتحق ببلاط الملك

« جيروم » الشقيق الأصغر لنا بليون بونابرت ويكون مديراً لفرقة الموسيقى بمدينة « كاسل » ، وقد استدعى أيضاً الموسيقار « رايشمارت » مدير فرقة البلاط ببرلين لتولى إدارة الفرقة الغنائية المسرحية في بلاط « كاسل » أيضاً ، وقد عرض على « بيتهوفن » في نظير ذلك مرتب قدره ستمائة دوكات (حوالى ٢٧٠ جنيهها) فى العام . وفى هذا الاختيار ما يفيد أن أمر صمم « بيتهوفن » كان مجهولاً للناس إلا عند أصدقائه والمقربين اليه .

عندئذ اجتمعت طائفة من أشرف « فينا » المعجبين بفن « بيتهوفن » الفخوريين برائع نتاجه وعقدوا العزم على استبقائه « بفينا » وخصصوا له مرتباً ثابتاً قدره ٤٠٠٠ جولدن (حوالى ٣٤٠٠ جنيهها) فى العام تعهد بدفعه ثلاثة من الأمراء . وأن يستولى « بيتهوفن » على هذا المرتب حتى يجده له وظيفة تتفق وفنه ، فإذا لم تتح له مثل هذه الوظيفة أو أصيب بمرض أو عائق ، كان له حق الاستمرار فى صرف هذا المرتب مدى الحياة . على أن يلتزم « بيتهوفن » فى نظير ذلك البقاء فى « فينا » .

كان فى هذا نوع من الترضية الأدبية لنفس « بيتهوفن » التى لم تصادف حتى الآن تقديراً ، كما كان فيه بعض استقرار حياته ، ذلك الاستقرار الذى طالما تمناه وتطلع إليه .

وتعرف « بيتهوفن » بأسرة « مالقاتى » وكان عميدها مثيراً من ذوى الأملاك الواسعة . اطمأن « بيتهوفن » الى هذه الأسرة فكان يقضى الكثير من سهراته فيها . وكان أفرادها جميعاً شغفين بالموسيقى يفضلونها على كل ماسواها . وكان سمرها غاية فى الأنىس ، والبهجة ، والفكاهة ،

جذب اليه نفس بيتهوفن ورأى فيه انشراح صدره وطمانينته . على أن جاذبية أخرى كانت فى هذه الأسرة تتضائل بجانبها هذه الجاذبية فى نظر الموسيقار العبقري . تلك أنه كان لهذه الأسرة فتاتان جميلتان فى ميعة الصبا . اكتمل نضجهما . ورفر حسنهما . إحداهما تكبر الأخرى بعام واحد ، وكتاهما تقطعان منتصف العقد الثانى .

واذ كان محور الحديث فى ليالى السمر يدور عادة حول الموسيقى فقد كان « بيتهوفن » موضع الإجلال والتقدير من هذه الأسرة وبخاصة من فتاتيهما اللتين احتل « بيتهوفن » من قلبيهما مكانة سامية ، ومركزا عظيما . وكانت إحداهما وهى « تريزا » ذات موهبة موسيقية نادرة ، واستعداد فنى عظيم . فلقنها بيتهوفن دروسا فى البيانو ، بل ولحن من أجلها بضعة أغان . وقد زاد شغفه بها حتى اعتزم الزواج منها كما سنذكره فيما بعد .

ويلات الحرب

اضطرت النمسا في معاهدة « برسبورج » إلى التخلي عن جزء كبير من أراضيها لنابليون الذي لم يتنعم منها بذلك بل دأب على إرهابها بطلبات متكررة متجددة .

رغبت النمسا أن تحم من مطامع ذلك القائد الذي لاحد لآماله ومطامعه ورأت أن امتشاق الحسام أجمع الوسائل للذود عن حياتها ، ودرء الأخطار التي تهدد كيانهما ، وكانت الفرصة سانحة لأن جزءا كبيرا من الجيش الفرنسي تفرغ للحرب ضد أسبانيا في عام ١٨٠٩ فأمرت النمسا جيوشها بالتعبئة العامة استعدادا لدخول الحرب .

علم « نابليون » بهذه الحركة فطالب « النمسا » بتسريح جيوشها والكف عن الاستعدادات الحربية ، ولما لحظ تسويق الوزارة النمساوية أسرع فحشد جيشا انضم إليه جيوش « بولندا » ومقاطعات « الرين » وزحف بها على النمسا تجاه نهر « الدونا » .

اشتعلت نار الوطنية في البلاد النمساوية عامة سيما في عاصمتها « فينا » فقد بلغ الحماس فيها أشده ، وأصبحت المسارح ، والدور العامة منتديات للاجتماعات السياسية ، تلتقى فيها الخطب ، والأغاني الحماسية . ولعل أظهر هذه الحفلات كانت تلك الحفلة التي أقيمت في ٢٨ مارس بإحدى تلك الدور حيث أقيمت فيها طائفة كبيرة من أغاني الحرب قامت بأدائها كروانة « فينا » وقتئذ « أنا ميلدر » المغنية المعروفة التي كانت بطلة أوبرا « فيديليو » .

وكانت أقوى أغنية أثرت في الشعب أنشودة « السلاح » أدتها تلك المغنية وقد تزييت بزى امرأة تمثل النمسا وأخذت تهز بصوتها الساحر قلوب الجماهير وتستثير همهم حتى اختتمت تلك الأنشودة بتبريدها « إننا نقسم » فكان الجمهور يردد ها معها في حماس بالغ ، وشعور ملتهب ثم أعقبتها بفناء الأنشودة الجديدة « المتساقون الجميع »

لقد التحق بالجيش كل من يتقوى على حمل السلاح . وكانت هذه فرصة أظهر فيها « بيتهوفن » ما يجيش في صدره من الإيمان الوطني بما أمد به هذه الحركة من الألمان القوية والقطع الحماسية الرائعة .

وعجيب أن يظهر في هذا الوقت العصب طيف أوبرا « فيديليو » مرة أخرى ، فقد ألح أصدقاء « بيتهوفن » ونهر من المعجبين به في إحيائها فأعلن عن ظهورها في يوم ١١ مايو من هذا العام ، ولكن سرعان ما اختفى هذا الإعلان من الطرقات وغاب عن أعين الجمهور كأنه لم يكن .

ذلك بأنه رغم الحماس الذي أبداه الشعب المتماوى والشعور الوطني الذي فاض به ، كانت سفته في الحرب غير راجحة . ولم يأت يوم ١٠ مايو — وهو اليوم السابق للموعد الذي كان قد حدد لظهور « فيديليو » — إلا كان الجيش الفرنسي المنتصر قد بلغ في زحفه أبواب فيينا .

دوت المدافع الضخمة بطلقاتها المفزعة فأزعجت أهل « فيينا » وكان ضحيتها الشيخ المريض الموسيقار « جوزيف هايدن » فإنه لم يقو على سماعها فأصيب بما عجل منيته ، وقضى بعد ذلك بأيام .

كذلك كان لهذا الدوي الهائل أثر سيء في « بيتهوفن » فقد سبب

له في أذنيه آلاما شديدة جعلته يهرع إلى مسكن شقيقه « كارل » وكان
أبعد من مسكنه عن مصدر الطلقات ، فينزل إلى الدور الأسفل منه ثم
يحتسى بوضع وسادات على أذنيه لتحجب عنهما سماع تلك الأصوات المزعجة
وفي أوائل شهر يوليو وضعت الحرب أوزارها . ورحل « بيتهوفن »
إلى أملاك الأمير « ليشنوفسكى » في « جريتز » بمقاطعة « شيليزيا »
المتساوية وهو يؤمل أن يجد فيها من هدوء الريف ، وطيب الحياة ما يعوض
عليه بعض ما قاساه . ولكن شاء سوء حظه إلا أن يتابعه فقد انتشر
الفرانسيون في تلك الجهات ، بل كان من أعاجيب القدر أن يكلف بالعرزف
في قصر الأمير « ليشنوفسكى » لطائفة من كبار أوائلك المنعيرين . كانت
تلك رغبة الأمير . وإذ كان « بيتهوفن » شديد الكراهية لأوائلك الناس
فقد أبقى تحقيق رغبة أميره وحدثت بينهما بسبب ذلك مشادة عنيفة انتهت
بمغادرة « بيتهوفن » القصر غاضباً وعودته إلى « فينا » .
وكان « بيتهوفن » رجلاً متديناً ، قوى الإيمان بالله لا يعترف بالعظمة
والكبرياء إلا له . وهو وإن كانت هذه صفته ، وقد باغ الأربعين من
العمر فإنه لم يضع حتى هذه الاحظة قداساً كنسياً إطلاقاً ، برغم ما كان
ينطوى عليه هذا النوع من التأليف من الأهمية العظيمة من ناحيتي الفن والدين
طلب الأمير « نيقولاوس استرهاسى » — الذي ظل الموسيقى
« جوزيف هايدن » في خدمة جده بمدينة « إيزنشتات » ثمانية وعشرين
عاماً — إلى بيتهوفن وضع قداس كنسى .
وإذ كان هذا الحفيد مشغولاً بالموسيقى فقد أعاد عهد جده فأسس

بقصره في مدينة « ايزنشتات » فرقة موسيقية أقام على رأسها الموسيقار « هوميل » .

فاما انتهى « بيتهوفن » من تلحين القداس الذي طلب إليه تلحينه سافر إلى مدينة « ايزنشتات » ليشهد بنفسه أداءه . كان القداس مؤلفاً لأربعة أصوات بشرية تصاحبها فرقة موسيقية وآلة الأرغن ، وترأس هذا الأداء الموسيقار « هوميل » رئيس فرقة الأمير . وإذا كان الأمير « نيقولاوس استرهاسي » شديد الإعجاب بالموسيقى الدينية التي ابتدعها « هايدن » ، لا يسمو اليها أى نتاج آخر من هذا النوع ، فإن قداس « بيتهوفن » لم ينل منه رضا حتى خاطب « بيتهوفن » في غير عناية قائلاً :
« يا عزيزى بيتهوفن ! ما هذا الذى أنتجته ؟ » .

شعر « بيتهوفن » بإهانة عظمى في هذه العبارة و بطعنة مجلاء توجه إلى كرامته من هذا الأمير ، الذى كان الموسيقار « هوميل » إلى جانبه يضحك عند سماعها . لم يسع « بيتهوفن » الغاضب لكرامته إلا أن يرحل من مدينة « ايزنشتات » عائداً إلى « فينا » .

كان « بيتهوفن » الموسيقار الألماني الفذ ، معاصراً « لجيتا » الشاعر الألماني الأوحى الذى يكبر زميله بواحد وعشرين عاماً . بدأت معرفة « بيتهوفن » بالشاعر « جيتا » منذ الطفولة ، حيث استظهر طرفاً من مقطوعاته الشعرية ، حتى لقد لحن بعض قصائده تلحيناً بقى على الزمن صفحة خالدة من روائع الفن ، وبدائع التنعيم .

وجاء دور تعارف هاتين الشخصيتين ، الفذتين بعضهما إلى بعض ،
معرفة شخصية ، وكان ذلك عن طريق سيدة أغرمت بالموسيقى والشعر ،
فأقبلت عليهما ، إقبالا حليما على التفاني في هذين الفنين ، والتقرب إلى
أهلها ، فكانت واسطة التعارف بين العالَمين « بيتهوفن » و « جيتا »
تلك هي السيدة « بتيانافون أورنيم » .

كانت هذه السيدة صديقة لجيتا ، تربطها به أوثق صلات الصداقة .
فلما رحلت في عام ١٨١٠ إلى « فينا » الإقامة بها ردحا من الزمن ، كان
أول ما قصدت إليه لقاء « بيتهوفن » والتعرف إليه .

وإذ اتصلت به ، فقد بدأت تنوء عنه في رسائلها إلى صديقها « جيتا »
وكانت أولى تلك الرسائل مؤرخة في اليوم الثامن والعشرين من مايو من
ذلك العام ، وهي رسالة مطولة جاء فيها :

« هو « بيتهوفن » الذي أحدثك عنه ، والذي جعلني أنسى العالم ،
وأنساك أيضاً . أعتقد أن هذه العبقرية الفذة لا يفهمها أحد ، ذلك بأن
تتاجها فوق مستوى جميع الناس . إنه يدرك دقائق الحياة البشرية ، وهي
في جيبه كساعته ، إلى أجله وأكن له كثيرا من الشعور بالاحترام ، وهو
يقبل على محادثتي بوداعة وفي صراحة تامة ، إنني ولا يريب لاشيء إلى
جانبه . لقد قال الناس لي ، إنه يحب العزلة ، ويكره الاتصال بالناس ،
بسبب إصابته في حاسة سمعه ، غير أنني لم ألحظ فيه تلك المعاملة السيئة !
فاستقبلني ببشاشة وسألني عما إذا كنت أرغب في سماع أغنية لحنا توا ،
فلما أظهرت علام الرضى قصد إلى آلة البيانو ، وأخذ يعزف لحنا وضعه

لقصيدتك : هل تعرف تلك الأرض ؟ » .

وكتبت « بتينا » هذه إلى صديقها « جيتا » في رسالة أخرى تقول :

« أى جيتا ! لا يوجد ملك ، ولا قيصر ، يعتد بنفسه ، ويشق في قوته

مثل بيتهوفن » .

كانت « بتينا » تقصد إلى « بيتهوفن » كل يوم تنصت إلى سحر أنغامه ، وتستمع إلى حلو حديثه . وقد روت أنها في إحدى نزواتها معه حدثها عن « جيتا » بقوله :

« ليست عظمة شعر « جيتا » في معناه فحسب ، بل في قوة إيقاعه التي لها على سلطان شديد ، تسوقني سوقاً إلى تلحينها ، فإن شعره يحمل في طياته أسرار الانسجام الموسيقى الذي أبحث عنه » .

ذلك من ناحية « بيتهوفن » أما من ناحية « جيتا » فكان يحمل لصاحبه نفس هذا الاحترام ، ومثل هذا التقدير ، حتى لقد كتب إلى صديقه « بتينا » في إحدى رسائله يقول :

« أرجو أن تبلغني « بيتهوفن » خالص تحياتي القلبية . وسأقوم بكل توضحية في سبيل معرفته ، معرفة شخصية ، حيث نستطيع أن نتبادل معاً الأفكار والشعور . لعلك تستخدمين تأثيرك فيه ، فترغبينه في السفر إلى مدينة « كارلسباد » التي أزورها كل عام تقريباً فأحظى بسماع موسيقاه وأرتشف من بحار علومه فيها » .

ومع ذلك لم يلتق هذان العلمان إلا بعد ذلك بعامين ، كما سنذكره

مفصلاً فيما بعد

كان لما خصه الأمراء لبيتهوفن من دخل سنوي ثابت أثر عظيم في تفكيره ، فإنه وقد خف عن كاهله عبء الحياة المادية ، أخذ يتطلع إلى حياة هادئة مستقرة . وفكر جدياً في أمر الزواج .

وفي يوم ٢ من مايو سنة ١٨١٠ أرسل « بيتهوفن » - وكان قد بلغ الأربعين من عمره - إلى مدينة « بون » في طلب وثيقة رسمية خاصة بتاريخ ميلاده كان في حاجة اليها لمناسبة هذا الزواج . ولئن اتفق الرأي على أن استحضار هذه الوثيقة كان لتلك المناسبة ، لقد اختلف الرواة في تعيين من وقع عليها اختياره لتكون زوجته ، إنما ترجح الروايات أن تلك الخطيبة لم تكن غير تلميذته « تريزamalفاقي » التي لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، وأنه كما خاب في خطبته الأولى « جوليت جويكياردى » فكذلك قد أخفق في هذه المرة ورزى أيضاً في حبه الجديد ، فقد رفض الوالدان أن يزوجا ابنتهما موسيقاراً معدماً ، نصف أصم ، بل إن « تريزا » نفسها ، لم تقبل أن تلتقى بنفسها في أحضان حياة شاقة وأن تضحي حياتها في سبيل حبه عبقرية تجلها وتحترمها .

وسواء أكانت خطيبته « تريزا » أم غيرها فقد فشل في خطوبته ، ومضى من أجلها بصدمة قلبية عنيفة ظهر أثرها في إحدى رسائله لصديق له حيث يقول : « ليس لك أيها المسكين « بيتهوفن » أن تنتظر سعادة تأتيك من العالم الخارجى ، إنما عليك أن تخلق سعادتك من باطنك ، وفي أعماق نفسك ، فإنك لن تجد أصدقاء إلا في العالم الروحى » .

لم يقعد الفشل الذى منى به « بيتهوفن » عند حد الحيرة فقط بل أقلق

حياته وزاد في اضطرابه حتى لم يكن أن يفرد له بابا في تأريخه عما كان
يجرى بينه وبين خدمه من المشادة والشغب والتبديل والتغيير .
وسرعان ما اعترف « بيتهوفن » نفسه بأن إخفاقه في الخطبة كان عدلا
بل لقد كان ذلك الرفض سعادة له فقال :

« قد يكون من سعادة المرء أحيانا ألا تحقق آماله » (وعسى أن
تكرهوا شيئا وهو خير لكم) .

ذلك بأن الزمن الذي يأتي مسألة العباقرة الأفاضل قد قلب له ظهر
الجن فسامت حالته المالية ، ووقع مرة أخرى في متربة شديدة وضائقة
مستحكمة وقيود من الديون لم يستطع الفكك منها ، وفاقة شديدة حمد
الله على أنه وحده الذي يغص بمرارتها ولم تشاطره الغصة زوجة يتضاعف
بها همه في تحمل أعباء الحياة .

أصيبت « فينا » بنتائج الحرب إصابة بالغة ألحقت بها خسائر فادحة
فهبطت الأوراق المالية في النمسا إلى خمس قيمتها الأساسية . وبذلك هبطت
قيمة المبلغ المخصص مرتبا « لبيتهوفن » من ٤٠٠٠ جولدن إلى ٨٠٠
جولدن فقط (حوالى ٦٨ جنيتها في العام) . بل لقد أصيب « بيتهوفن » بما
هو أدهى من ذلك ، إذ توفي أحد الأمراء الثلاثة التعمدين بدفع هذا المراتب
على أثر سقوطه عن ظهر جواده فتوقف ورثته عن دفع ما يخصهم في هذا
المرتب . وأفلس أمير ثان من هؤلاء الثلاثة فلم يستطع دفع ما يخصه .
ذلك فضلا عما كانت تنفرز له نفس « بيتهوفن » من سماعه ما كان
يدور على السن كل حاشية أولئك الأمراء من أنه يستولى على مال بدون مقابل

إذن لم يبق من هؤلاء الأمراء الثلاثة غير واحد هو النبيل «رودلف» وكان شديد العطف على «بيتهوفن» كبير الإعجاب به ، كما كان كذلك أحد تلاميذه . شق على هذا الأمير أن يرى حالة «بيتهوفن» ، تصل إلى ما وصلت إليه من البؤس وأن يحرم ما خصص له من المرتب بعد أن فوتوا عليه وظيفة عالية في بلاط كبير . لهذا فقد ضاعف له ما يخصه من هذا المرتب حتى بلغت قيمة ما يدفعه إليه ٩٠٠ جولدن (حوالي ٧٦ جنيتها) .

كان لزاما على «بيتهوفن» أن يقنع بهذا القدر من المال وكان في ذلك ما صدع فؤاده وآلم نفسه . وضاعف إيلامه أن ظهر له في ذلك الوقت المقطوعة « كونسرت البيانو الكبرى » وكان ينتظر لها ولو نجاحا أدبيا يسري عن نفسه ، ولكنها سقطت بل وظهر ضده طائفة من المعارضين بفينا ، اتفقوا فيما بينهم على العمل لا إسقاط كل نتاج في يظهر له . وكان مما يحز في نفس «بيتهوفن» ألا وغضاضة ما كان يضطر إليه في صرف راتبه السنوي المنخفض من تقديم شهادة رسمية تثبت أنه على قيد الحياة ، وكان يكره على هذا العمل البغيض كل عام . فكان عملا ثقيلًا على نفسه مريراً . حتى لقد شكاه هذه الحال لصديق له ، فكتب يصف له هذه الشهادة بعبارة تدل على مقدار ما يحس به من الألم إذ وصفها بأنها « شهادة تثبت أن السمكة على قيد الحياة » .

وقد يكون عام ١٨١١ أقل سنى «بيتهوفن» نتاجا ، فلولا ما قام فيه ، بناء على طلب مسرح مدينة «بست Pest» ، بوضع موسيقى أطلال أثينا وأوفرتير الملك ستيفان ، لم يكن يعرف لهذا الموسيقار الخالد نتاج يذكر في ذلك العام